

محمود المسعدي

(1911 - 2004)

بقلم : محمود طرشونة

فَقَدَتْ تونس والثقافة العربية في السادس عشر من شهر ديسمبر 2004 الكاتب الكبير محمود المسعدي وكان "ملاً الدنيا وشغل الناس" طيلة عقود بما ابتكره من أساليب الكتابة الأدبية في مؤلفاته السردية ومقالاته النقدية، وبحوثه الأكاديمية في الإيقاع، وتأملاته في منزلة الإنسان في الكون، وآرائه في الحياة والموت، والوجود والخلود، وعذاب الشك وطمأنينة الإيمان وفي قدرة الإنسان على إرادة الفعل وحدودها وتوقه الدائم إلى الأعلى.

كانت حياته زاخرة بالنشاط في عديد المجالات، مربياً ثم وزيراً للتربية، ونقائياً وطنياً عرف المنفى، ومثقفاً جامعاً ووزيراً للثقافة، وسياسياً تقلّد رئاسة مجلس النواب ...

ولد بتازركة من ولاية نابل يوم 28 جانفي 1911. وكان والده عدلٌ إسهاد أدخله كتاب القرية لحفظ القرآن فعاش فترة من طفولته على إيقاعه وسيظهر أثر ترتيله جلياً في أسلوبه وجملته. ثم تحوّل إلى العاصمة ليزاول تعلّمه الابتدائي (1921 - 1926) والثانوي (1926 - 1932) بالمعهد الصادقي، المزدوج اللغة فيتحصّل منه على دبلوم انتهاء

الدروس ثم بمعهد كارنو الفرنسي اللغة فيتخرج منه بالجزء الثاني من البكالوريا (1933).

وقد اكتشف في المعهد عناصر من التراث العربي الإسلامي وبعض أعلام الثقافة الغربية فأحب أن يعمق معرفته بهذين الرافدين فسافر إلى باريس لاستكمال تكوينه وتخرج من جامعة الصربون بإجازة في اللغة والآداب العربية (1936)، وبعد انقطاع قارب العشر سنوات اقتضته ظروف الحياة والحرب العالمية الثانية استأنف الدراسة فتحصل على شهادة الدراسات العليا (1946) ونجح في مناظرة التبريز (1947) وسجل موضوع دكتوراه دولة بتركيب من اطروحة رئيسية في "مدرسة أبي نواس الشعرية" واطروحة تكميلية في "الإيقاع في السجع العربي".

وقضى محمود المسعدي عشرين سنة في التدريس بصنفيه الثانوي بمعهد كارنو والمعهد الصادقي (1936 - 1948) والعالى بمعهد الدراسات العليا بتونس ومركز الدراسات الإسلامية بجامعة باريس (1948 - 1955).

واللافت للانتباه في العلاقة بين نشاط المسعدي وإنتاجه الأدبي أن طبيعة كل فترة تملئ صنفا مخصوصا من الكتابة. ففترة التدريس بالثانوي تنقسم إلى مرحلتين، الأولى آلف فيها بين 1939 و 1944 أهم نصوصه السردية ("حدث أبو هريرة قال..." و "السد" و "مولد النسيان" و "المسافر" و "السندباد والطهارة" وبعض نتف من "أيام عمران") فكانت أحص فتحات إنتاجه الإبداعي. وما إن تولى رئاسة تحرير مجلة "المباحث" سنة 1944 حتى تحول إلى النقد الأدبي فكتب جملة هامة من افتتاحيات المجلة ودراسات في أدب المعري وأبي العتاهية والغزالي⁽¹⁾ وبرنار شور (Bernard Shaw) وبول فالري (Paul Valéry) وأندري مالرو (A.Malraux).

(1) جمعت في كتابه "تأصيلا لكيان" (تونس 1979).

ثم تحوّل إلى التعليم العالي فتفرغ للبحث العلمي وأنهى أطروحته التكميلية في "الإيقاع في السجع العربي" وأودعها بجامعة الصربون فتحصّلت على تأشيرة النشر في مارس 1957، إلّا أن هذا البحث لم يمنعه من ممارسة نشاط مواز في هذه الفترة فكانت له مساهمة في الحركة النقابية منذ 1948 رئيساً لجامعة التعليم ثم أميناً عاماً للاتحاد العام التونسي للشغل مدّة يوم واحد هو يوم اغتيال فرحات حشاد (5 ديسمبر 1952)، خلفه على رأس المنظمة الشغيلة لإعداد المرحلة القادمة لكنه اعتقل في الليلة نفسها ونُفي إلى الجنوب التونسي. وبمجرد الإفراج عنه شارك في مؤتمر المنظمة العالمية للشغل بجنيف ثم بباريس في المفاوضات التي أفضت إلى الاستقلال الداخلي (1953 - 1955).

وقد تحوّل إنتاجه إلى صنف آخر بعد تحمّله جملة من المسؤوليات الرسمية بعد الاستقلال في الفترة الممتدة بين 1955 و1986، بدأها رئيس مصلحة التعليم الثانوي تقلد إثرها كتابة الدولة للتربية القومية (وزارة التربية اليوم) فعمل على تعميم التعليم حسب خطة عشرية (1958 - 1968) وأسّس نواة الجامعة التونسية وبعد فترة انتقالية (1969 - 1970) عيّن فيها كاتب دولة لدى كاتب الدولة للرئاسة (وزير دولة لدى الوزير الأول) عيّن وزيرا للشؤون الثقافية (1973 - 1976) فأسس مجلة "الحياة الثقافية" (1975) وكأنه أرادها بعثا لمجلة "المباحث" رغم اختلاف الظروف. وقد انتخب عضواً بمجلس الأمة (مجلس النواب اليوم) منذ سنة 1959 إلى 1981 ثم رئيساً له من 1981 إلى 1986. وكان ترأس الوفد التونسي المشارك في أشغال منظمة اليونسكو وبقي عضو مجلسها التنفيذي من 1974 - 1978 ثم من 1980 إلى 1985 داعياً إلى تصوّر ثقافة عالمية تستفيد منها الدول المتقدمة والدول النامية على حدّ سواء. وساهم في أشغال المعهد الدولي لتخطيط التربية التابع للمنظمة وكلف بإدارة قسم من كتاب "مختلف مظاهر الحضارة الإسلامية" وحرّر بصفته إحدى الشخصيات العالمية السبع الذين طلب المدير العام لليونسكو رأيهم في موضوع "إلى أين تسير التربية؟" دراسة استعملتها "اللجنة العلمية

لتنمية التربية" برئاسة إدقار فور (E. Faure) وثيقة أساسية بعنوان "التربية اليوم وغدا" استعملت بدورها في كتابين أعدتهما اللجنة بعنوان "تعلم كيف تكون" و"التربية في تحول". وفي نفس المجال الثقافي الدولي كتب الأستاذ محمود السعدي تقريراً مطوّلاً بعنوان "التنمية الثقافية في المنطقة الثقافية للدول العربية" مثل فصلاً من كتاب لليونسكو عن المناطق الثقافية الست في العالم، كما ساهم في أشغال عديد اللجان منها لجنة خبراء الثقافة العربية بصفته مقرّراً، ولجنة الخبراء المكلفين بتقييم المراكز الجهوية لليونسكو في الشرق الأوسط، ولجنة الخبراء لإنشاء جامعة دولية... أمّا في نطاق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو) فقد شارك منذ سنة 1979 في عضوية لجنة الحكماء للثقافة العربية ولجنة صياغة الموسوعة العربية الكبرى، وكان عضواً في مجمع اللغة العربية بالأردن (1980) (2).

وبخصوص الإنتاج الأدبي في فترة تحمّل هذه المسؤوليات (1956 - 1986) اقتصر محمود السعدي على جملة من المحاضرات بالعربية والفرنسية ألقاها في القاهرة (1957) ودمشق (1975) وطرابلس (1977) وجامعة بوردو (1984) ومعهد العالم العربي بباريس (1994) وفي كلية الطب بتونس، وعلى حوارات حول الأدب العربي المعاصر ومقاصد مؤلفاته السردية أجرتها معه صحف ومجلات تونسية وعربية وفرنسية نذكر منها بالخصوص الآداب (لبنان) والأقلام (العراق) والأصالة (الجزائر) والعربي (الكويت) والكرمل (فلسطين) وأخبار الأدب (مصر) والندوة والصباح والشعب ولابراس (تونس) و لومند (فرنسا) وتسجيلات إذاعية وتلفزيونية عديدة.

وبمجرد انقطاعه عن تحمل المسؤوليات الحكومية والبرلمانية سنة 1986 تحول إلى مرحلة جديدة في إنتاجه تختلف تمام الاختلاف عن

(2) انظر كتابنا "الأدب المريد في مؤلفات السعدي" فصل "عناصر جديدة في ترجمة السعدي"، الطبعة الخامسة، تونس 1997، ص 139 - 149.

الإبداع في مرحلة التدريس الأولى (1939 - 1944) والنقد في الثانية (1944 - 1948) والبحث الجامعي في الثالثة (1948 - 1955) هي مرحلة التأمل وما نتج عنها من المواقف والأفكار صاغها في شكل جُمْل أو فقر قصيرة مركزة ومكثفة تناولت قضايا وجويدة في منتهى الأهمية كالإيمان والحرية ومصير الإنسان وقيمه، كما عاجلت مواضيع الفن والأدب وأساليب الكتابة والنقد، وقد بلغ عدد هذه التأملات 111 بالعربية⁽³⁾ و175 بالفرنسية⁽⁴⁾.

* * *

إنّ التأمل في حصاد العمر يلاحظ في إنتاج المسعدي جملة من الإضافات في مختلف المجالات التي تناولها إبداعا ونقدا وبحثا وتأملًا.

ففي مجال الإبداع تتمثل أهم إضافة في ابتداعه أسلوبا أدبيا ليس خلاصة الأساليب التي تأثر بها ولا محاكاة لها بل هو ما يمكن تسميته بأسلوب المسعدي فيه من النثر القرآني ونثر التوحيدي والأصبهاني والمعري والغزالي نصيب لامحالة لكنه يختلف عنها جميعا بما شحن به لغته من طاقات حية وتركيب للجمل عجيب الإيقاع.

والنعت نفسه ينطبق على الأجناس الأدبية التي صاغ في إطارها سرده فقد دكّ في مؤلفاته القصصية جميع الحدود الفاصلة بين الرواية والقصة والمسرحية والحديث والخبر وابتكر شكلا جديدا يذكر بكلّ منها ولكنه يتجاوزها جميعا إلى ما يمكن تسميته بالجنس العابر للأجناس الأدبية المعهودة، وظّفه للتعبير عن حيرة الإنسان إزاء مصيره ومنزلته في الكون وحدود إرادته الخلق (في "السد") والخلود (في "مولد النسيان") والمطلق (في "حدث أبو هريرة قال...") والمعرفة (في كتاب "من أيام عمران")

(3) نشرنا نصوصها لأول مرة في كتاب "من أيام عمران وتأملات أخرى" (تونس 2002) ص 119 - 155. ثم أعدنا نشرها في الجزء الأول من "الأعمال الكاملة" ص 409 - 434.

(4) نشرناها لأول مرة في الجزء الرابع من "الأعمال الكاملة" (تونس 2003) ص 441 - 468.

والحلم (في "المسافر") والطهارة (في "السندباد والطهارة"). وقد طرح في جميع هذه المؤلفات سؤالاً وحيداً : من أنا ؟ ⁽⁵⁾ وسعى إلى الإجابة عنه بطرق مختلفة، فبقي أدبه مفتوحاً قابلاً لعديد القراءات والتأملات شأن كل أدب قويّ ثريّ.

وينتمي كتاب "حدث أبو هريرة قال ..." إلى الأدب الروائي ويعتبر في نفس الوقت امتداداً للقصص العربي القديم وإحياء وتجديداً له. وإنّ كامل الأحداث تدور في فلك شخصية رئيسية اختار لها المؤلف اسم صحابي شهير ومحدث من الثقات. لكن الشخصية الروائية تختلف تمام الاختلاف عن الشخصية التاريخية وربما كانت نقيضها، فأبو هريرة في كتاب المسعدي إنسان قلق متمرّد لا يستقرّ على حال، أخرجته صديق له من جموده وتقليده فاكتشف الحسّ واللذة، فكان البعث الأول، ثم أغرق فيهما إلى حدّ الملل فوضع ريحانة رغم أنها وهبته من المتعة ألواناً، فطلب الغيبة لكنه لم يدركها إذ وقع من جديد في شراك الجسد وعوض أن يجد في الراهبة ظلمة الهذلية دليلاً يرشده إلى عالم الغيب والإيمان، أدخلها عالم المتعة، "والدير يحسبنا نتعب ونبتهل وإنّما كنّا في الشيطان (ص 140). ثم جرّب الفعل مع الجماعة فعلمها الإرادة وبكر السبيل وحياة الخصب والرخاء، لكنّه ما تخلّى عنها حتى انخذلت وعادت إلى تطاخمها فخاب أمله وطلب المطلق وظنّ أنه بلغ غايته وأدرك لغز الحياة والموت وما وراء الموت فكان البعث الآخر.

تلك أهم أحداث الرواية نختمها ونرتبها الترتيب المنطقي أي الزمني المخالف لترتيب اللوحات أو الروايات في الكتاب. وتصرف الكاتب في الزمان وحتى في المكان هو الذي يكسب هذه الرواية حداثتها ما كانت الأحاديث والأخبار التي تقوم على أشكالها لتعرف شيئاً منها.

(5) يقول في تأملاته إن الإنسان سؤال واحد لا يتكرّر ولا يتغيّر، لا يتكرّر لفظاً دون إفلاس وإملاق، ولا يتغيّر معنى دون زور ودّلس (عدد 97) ولما سئل عن ماهية هذا السؤال أجاب : " السؤال السرمدى هو انت، من أين جئت ؟ " الأعمال الكاملة، ج 3، ص 422.

أما كتاب "السد" فقد اعتمد شكل المسرحية إطارا لأحداثه مع حفاظه على صور ومفاهيم وألفاظ مستقاة من التراث العربي والإسلامي، ذلك لأن غيلان شخصية مأسوية قوية قد يكون الإطار المسرحي أنسب للتعبير عن طموحاتها وآرائها.

فأهمّ الأحداث تقوم على رغبة غيلان في بناء سدّ يحبس بواسطته الماء الضائع في أرض ضمأى تعاني القحط والجفاف ويرفض أهلها الاعتراض على موانع الإلهة صاهباء وهواتف أنبيائها، فتمرد غيلان على تلك القوى الغيبية ولم يشنه على عزمه إيمان ميمونة ورضاها بالمقدّر، فنجح في التصديّ للعراقل وبنى سدّه رغم كلّ الصعاب. لكن سرعان ما هبّت عواصف هوجاء وغضبت الطبيعة وانهد السدّ وسقط أنقاضا. وكانت ميارى قد شدّت أزره عندما خذله عماله ودفعته إلى المشاورة على الجهد فظهرت طيف خيال وبعثت في نفسه أملا متجددا وعزيمة وأرشدته إلى نور في الغاب منير، فقالا في صوت واحد : "لنعلون برأسنا ولنفتحن لهما في السماء بابا". لكن انهيار سدّه لم يمنعه من التفكير في تجديد التجربة لأنه يعتقد أن الفضل كل الفضل في الفعل والعزم.

ويتضح من هذا التحليل الموجز لأهمّ الأحداث أن هذا الكتاب ينتمي إلى جنس المسرح الذهني الذي يهدف إلى تبليغ أطروحة فكرية في شكل فني. وقد أثارت المسرحية عندما نشرت لأول مرة سنة 1955 نقاشا حادًا في الساحة الأدبية أذكاه الدكتور طه حسين بقوله "وحسبك أني قرأتها مرتين ثم احتجت إلى أن أعيد النظر فيها قبل أن أملي هذا الحديث، وهي بأدب الجدّ العسير أشبه منها بأي شيء آخر". لكن بقية الفصل دلت على فهم عميق لمختلف أبعادها، خاصة عندما ربطها بالتيار الوجودي القائم على الحرية والإرادة والمسؤولية ونزلها في إطار وجودية إسلامية عميقة الجذور في التراث العربي الإسلامي.

ولا يقلّ مدين في "مولد النسيان" عزيمة غيلان، فهو أيضا أراد تجاوز حدود الذات الإنسانية بإرادته الخلود، فقد ساءه أن يرى الناس

يجدّون ويسعون فيهنّون الطعام للدّود والفناء، وأزعجه أن يتداوى الناس بالأوهام والغيب فبنى مارستانا يعالج فيه المرضى، وصدّهم عن الاستغاثة بسحر رنجهاد سادنة عين سلهوى.. ولما مات له أول ميّت انتابه الشك في قدرة أدويته على القضاء على "هادم اللذات" وفكّر في الاستعانة بدوره بسحر رنجهاد فأدخلته الغاب ورافقته إلى عين سلهوى وأرّته كيف يعاني الأموات من ذكرى أجسادها وعلمته أن يطهر من الزمان دواءه لأن الزمان هو الذي يجعل الروح تحنّ إلى الجسد حتى بعد الموت. وكان أول من تناول الدواء الذي ركّبه، فظنّ أنه أدرك الخلود... ساعة، لكن جسمه انهار وتعقّن في لحظات وفشل في نيل الخلود. إلّا أنّ ليلي التي كانت تعترض على تجاربه قد أصابتها بعد موته عدوى الإرادة، فكانت نهاية مدين بداية لها. وهكذا تتجدّد عبر ليلي التجربة الإنسانية وتبقي على الأمل في نيل المراد.

إنّ بعض من اطّلع على هذا الأدب اعتبره أدب الهزيمة التي تتوجّ التمرد وتفكّل العزائم! ولو صحّ هذا الفهم لما كان لأدب السعدي قيمة فكرية تذكر، إذ لا يعقل أن يدعو الأدب الرفيع إلى اليأس والتشاؤم ويبقى مع ذلك إشعاعه وبعده الإنساني. لكنّ تحليل الجوانب الفنية قد يكون كفيلا بمعرفة غاياته على حقيقتها.

وفي مجال البحث الجامعي فإن أهمّ إضافة له تتمثل في الاهتمام في وقت مبكّر إلى نظريّة في الإيقاع النثري تقوم على علاقة بين عدد المقاطع في الجمل المسجّعة و"الطول الطبيعي للتنفس العادي الجاري بدون إغراق ولا إجهاد". وقد اعترف له بعض علماء اللسان في تونس وخارجها بهذا سبق⁽⁶⁾ يقول محمد عبد المطلب مثلاً: "والحق أن هذه الدراسة تمثّل حدثاً بالنسبة إلى لحظة الحضور التي نعيشها، فما بالنا إذا كانت الدراسة قد كتبت سنة 1939 (هكذا) قبل أن تستفيض المناهج

(6) انظر كتاب: محمود السعدي بين الإبداع والإيقاع، أشغال ندوة كلية الآداب بمنوبة، شارك فيها عبد السلام السدي ومحمد عبد المطلب ومحمد العمري وعبد الله صولة ومحمد القاضي ومحسن جاسم الموسوي، تونس 1997.

اللغوية بما تحتويه من أساليب في التعامل مع النص الأدبي في الواقع العربي، سواء في ذلك التعامل الصوتي أو المعجمي أو الدلالي". (7) ويقول عبد الله صولة : "جاء الكتاب يسدّ فراغا في المكتبة العربية مهولا على أن المسعدي لم يكتف لسدّ هذه الثلمة بفضل الريادة فثنى بفضل الإفادة وله في ذلك زيادة" (8) ويضيف ص 100 : "إنه اعتمد جداول إحصائية على غاية من الدقة ومن الإتقان والعمق". واعتبره محمد العمري من "الأعمال العلمية الجديدة التي تتسم بالجرأة واقتحام الآفاق غير المألوفة". (9).

أما "التأملات" فإنها تبرز وجها جديدا للمسعدي لم يظهر جليا في كامل مؤلفاته السابقة هو جانب الحكيم الذي حتّكته تجارب الوجود وابتعد عن كل الأنشطة التي مارسها طيلة نصف قرن وصار ينظر إلى الدنيا بعين التفلسف والتفكير في المصير. ونقتصر على ذكر نماذج من تأملاته في انتظار تصنيفها وتحليلها في عمل لا حق :

- الحياة صيرورة وديمومة وفناء. والكيان وعي وسؤال. (عدد 6)
- الدين حيرة وسؤال في حوار دائم مع السماء وإلا فهو بلادة طبع أو خدعة أو بهتان (عدد 10)
- ما أشفه الحبّ القاصر عن الجنون، وما أحسنّ العبادة خلت من العشق (عدد 12)
- طريق السعادة إلى الروح متعة الجسد خالصة أو عذاب التصوّف (عدد 17)
- ليس من الأدب على أيّ وجه أن تقول لتقول وإن أبدعت حرفا ولحنا وإنما هو أن تكون لتقول لتكون نحتا وتمحيصا. (عدد 18)

(7) م.ن. ص 47.

(8) م.ن. ص 87.

(9) م.ن. ص 112.

- الخلق وهم يجهّد أن يكون، فيكون إذا مرّ به إله أو مجنون. (عدد 26)

- المعرفة عقل وعلوم والأديان تصديق وقبول (عدد 31)

- آفة الأدب اللفظ إذا انتفخ وطغى (عدد 59)

- أقسى الشقاء الكفر الأعمى، وأقسى البلادة الإيمان الساذج (عدد 68)

- مجال الأدب ما بين الرؤية والرؤيا انطلاقاً من الواقع إلى الحلم الهائم الواهمي (عدد 75)

- لا يصون الأدب من الزيف إلا القيمون على تخليص ذهب معدنه من بريقه اللّماع بصرامة النقد ولطف الإحساس (عدد 77)

- ما أفرغ الحياة بلا حبّ، وما أكذبها بلا أبد (عدد 85)

- يقولون : العبقرية جنون. وأيّ نبيّ لم يكن مجنوناً ؟ وأيّ مجنون لم يكن نبيّ العقل الجديد ؟ (عدد 91)

محمود طرشونة